دراسة في الأدب المقارن

ا لـحـصـــــــــــا د

بين محمود حسن إسماعيل ووليام ويردزويرث

د/ توفيق على منصور

محمود حسن إسماعيل ظاهرة شعرية استمرت أكثر من أربعين عاماً تلهم حياتنا وتؤثر فيها وتهزها . فقد استأثرت التجربة الشعرية بحياته وحولتها إلى وهج فني حار ، قلِ أن تصل إليها تجربة فنية في العصر الحديث . فهو رائد من أكبر رواد مدرسة الشعر الوجداني في شعرنا العربي المعاصر. فهو من الجيل الذي نطلق عليه جيل أبو للو الذي أتى في مطلع الثلاثينيات بعد شوقي وحافظ ومطران وغيرهم .

أصدر ديوانه الأول "**أغاني الكوخ** " في عام ١٩٣٦ ، بينما كان طالبا في كلية دار العلوم ، صوَر فيه حياة الريف فى صعيد مصر وشقاء الفلاح وتعاطف مع أحزانه وأعاد الحياة إلى الطبيعة في القرية المصرية ، فجال بنا خلالها نشم أريج الحقول ونلمس أغصان الشجر ونرى زهور القطن والفول ونسمع زمارة الراعي وغناءه وثورة الضفادع ويشجينا بأحزان الغروب .

ويقول عنه الأستاذ الدكتور /عبد العزيز الدسوقى :

لست أنكر أنه أصيب – كما أصيب زملاؤه من مدرسة الوجدان الشعري – بمرض العصر ، وهو المرض الذي أصيب به كل الأدباء الرومانسيين في الآداب العالمية المختلفة ، نتيجة تلك الفجوة بين أحلامهم وطموحهم وبين واقع الحياة الذي يعيشون في ظلاله . وكان يدفعهم هذا المرض إلى الهروب إلى الطبيعة يغسلون في رحابها أوضار نفوسهم ، أو يلجئون إلى عالم الخيال ، حيث يصورون الخوارق وعجائب الكون .

ومن الطريف أن كل هذه الأعراض الرومانسية لمرض العصر ظهرت على محمود حسن إسماعيل وتجلت في شعره . فقد صور الطبيعة فى شعره وامتزج بها وحل فيها وتنفس من خلالها . وديوانه " **أغاني الكوخ** " صلاة في محراب الطبيعة . وقد لجأ إلى أحضان المرأة ولاذ بحنانها وصورها حلما ناعما رقيقا وجسدا ثائرا ... وفى ديوانه " **نهر الحقيقة** " الذي صدر في عام ١٩٧٢ .. تذكرنا قصيدة " موسيقى من الجن "على الفور بقصيدة " الملاح العجوز " للشاعر الناقد الإنجليزي " كولريدج " وهى قصيدة طويلة تصور مجموعة من العجائب والخوارق الرهيبة . وهذا الجانب الرومانسي كله فى حاجة إلى دراسة تفصيلية . ([١])

والشاعر صمويل تيلور كولريدج (١٧٧٢ – ١٨٣٤) شاعر إنجليزي نشر مع صديقه ويليام ويردزويرث (١٧٧٠ – ١٨٥٠) ديوان **مواويل غنائية Lyrical Ballads** وهى من أعظم القصائد فى تاريخ الشعر الإنجليزي . نبذ فيها الشاعران فكرة اللغة الشعرية الخاصة وقصدوا أن يكون الشعر واضحا سهل المنال . وتعتبر قصيدة كولريدج " الملاح العجوز " مساهمته الرئيسة فى هذا الديوان ، وهى قصيدة من الدراما الراقية تحكى قصة كابوس في رحلة بحرية مهلكة ، وهى واحدة من الأنماط الرومانسية التى تقف على قدم المساواة مع قصائد ويردزويرث عن الحياة اليومية التى كتبها الشاعر عن قصد . ([٢])

أما الشاعر الإنجليزي ويردزويرث ، فكان مثل شباب جيله شديد الإعجاب بالثورة الفرنسية . تقابل مع كولريدج فى عام ١٧٩٥ حيث أصدرا ديوانهما المشترك فى ١٧٩٨ . ويرى ويردزويرث أن الشعر يجب أن يكون واضحا يسهل تداوله بين الناس كافة وأن يكتب باللغة البسيطة بحيث يكوَن مشاعر يتدبرها المرء باطمئنان . ([٣])

١- د. عبدالعزيز الدسوقى ، **محمود حسن اسماعيل : مدخل إلى عالمة الشعرى** ، سلسلة كتابك رقم ٣١ ، (القاهرة : دار المعارف، ١٩٧٨) ، ص ص ٣-٧.

[2] - Edwin Moore and Fiona Mackenzie Moore , "Coleridge, Samuel Taylor,"*Concise Dictionary of Art &literature*, (London: Tiger Books International, 1994) , pp.98,99.

[3] - Moore, " Wordsworth, William, " op.cit., pp. 438, 439 .

والحركة الرومانسية Romanticism مصطلح يركز على المشاعر والمضامين في مقابل ماتدعو إليه الحركة الكلاسيكية من اتباع الشكل والنظام . وقد بدأت في أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر ، رغم أن المقارنة بين الحاجة إلى التعبير عن العاطفة والرغبة في اتباع الأنظمة الفنية ترجع إلى عصر كتاب المسرح الإغريق القدماء ، كمقارنة أعمال إيسخيلوس بأعمال سوفوكليس . ومن الملامح المميزة للحركة الرومانسية تفوَق النزعة الفردية على النزعة الجماعية ، والإيمان المستمر بالقدرة على الإصلاح والتطور الدائم المحمود للعنصر البشرى، وتفوق الفضائل الطبيعية والعضوية على البناء الصناعي للمجتمع ([٤]) .

فإذا كانت قصيدة محمود حسن إسماعيل " موسيقى من الجن " تذكرنا بقصيدة الشاعر الإنجليزي كولريدج " الملاح العجوز " فإن قصيدته " حصاد القمر " التي ضمها ديوانه " **أين المفر** " تذكرنا بقصيدة ويردزويرث " الحاصدة الوحيدة " .

* وموضوع القصيدتين واحد وهو حصاد القمح في أحد الحقول : أولهما في صعيد مصر بينما الآخر فى صعيد إنجلترا أعنى به في اسكتلندا . كتب الشاعر إسماعيل تمهيدًا لقصيدته " حصاد القمر " يقول فيه : " وفتحتْ حانة القمر أبوابها للسنابل والأكواخ والنخيل ، فراح يشرب سرها من أنين المناجل في يد الفلاح الحزين ([٥]) .

* وبينما يصير الحصاد فى صعيد مصر تجنبا لحرارة الشمس اللافحة في النهار واستمتاعا بنسمات الليل الولهانة حيث يقول إسماعيل :

سيان فى جفنه الإغفاء والسهر نامت سنابله واستيقظ القمر
نعسان يحلم والأضواء ساهدة قلب النسيم لها ولهان ينفطر ([٦])

---

[4] - Moore, "Romanticism , " op.cit.,pp349, 350

[5] - الدسوقى ، المرجع السابق ، ص ٢٦ .

[6] - المرجع السابق .

يصير الحصاد فى اسكتلندا نهاراً استمتاعا بدفء الشمس فى هذه البلاد الباردة ، حيث يقول ويردزويرث " :

Or is it some humble lay ,
Familiar matter of today ?

وهل هى أنشودة عامة نألف موضوعها كل يوم ؟ ([7])

* ويصوِّر إسماعيل حزن الفلاح المصري وشقاءه وعذابه بقوله يخاطب القمر :

قف مرة فى سماء النيل واصغ إلى محيرين سروا في الحقل وانتشروا
قوم هم الدمع والآهات تحملها أقفاص عظم لهم من خطوها نذر
كادت مناجلهم والله مشربها باس الحديد من البأساء تنصهر
مشوا بها فى مغانى النور تحسبهم جنائزا : زمرً أنّت لها زمر ([8])

.....

وإذ بها فى تراب الحقل نائمة تحكى توابيت لم توجد لها حفر
بكى الحصيد على أحزان غارسه متى سيحصد هذا الدمع ياقمر ؟

وفى هذه التجربة الاجتماعية يصور إسماعيل شقاء الفلاح المصري ويبين عذابه الذي يعانيه والمنجل في يده يحصد الخير وهو صابر .

وفى مقابل هذه التجربة الاجتماعية يصور ويردزويرث حزن الحاصدة وهى تميل بمنجلها على القمح لتحصده وتغنى أغنية حزينة بلهجة غريبة عليه هي لغة اسكتلندية غاليَة تسمى إيرزا Erse ، ويتوقع أن تكون رثاء لقوم تعساء قضوا نحبهم في المعارك القديمة أو في كوارث طبيعية فيقول :

---

[7] - د. توفيق على منصور (مترجم) **مختارات شعرية مترجمة** : الجزء الثانى " الحاصدة الوحيدة " (القاهرة :المجلس الأعلى للثقافة ، المشروع القومى للترجمة ، ٢٠٠٣) ، ص ص ٢٢٩ – ٢٣٠ .
[8] - الدسوقى ، المرجع السابق، ص ٣٢ .

And sings a melancholy strain

.....

For old, unhappy, far off things,
And battles long ago:

.....

Or is it some more humble lay,
Familiar matter of today?
Some natural sorrow, loss,or pain,
That has been, and may be again .

وتمضى تغنى بصوت حزين ...

.....

فهل تشتكى عبر هذا الغناء فقيدا كبيراً لسوء المصير ؟
وشيئا عزيزا بعيد المنال بمعركة من قديم الزمان ؟
وهل هى أنشودة عامة نألف موضوعها كل يوم ؟
وهل هو جرح أصاب الفؤاد وهل هو حزن انتته الطبيعة ؟
ألمَ كثيراً ومازال يسرى وقد يتكرر مستقبلاً ؟ ([9])

* وإذا كان حقل القمح في صعيد مصر نشوانا يغمره ضوء القمر ويلقى بمسمعه همسا من الوحي، فإن الشاعر يأمر المستمع للقصيدة بأن يخشع إن مر به ، فيقول :

سيان فى جفنه الإغفاء والسهر نامت سنابله واستيقظ القمر
نعسان يحلم والأضواء ساهدة قلب النسيم لها ولهان ينفطر
مال السنا جاثيا يلقى بمسمعه همسا من الوحى ، لايدرى له خبر

.....

الدوح نشوان فاخشع إن مررت به فضيفه الباطشان الليل والقدر
كأن أغصانه أشباح قافلة غاب الرفيقان عنها الركب والسفر

[9] - منصور ، المرجع السابق ، ص ٢٢٩ .

مبهورة شخصت فى الجو ذاهلة كأنها لحبيب غاب ... تنتظر
أوأنها نسيت عهدا وأنعشها شجو الرياح فهاجت قلبها الذكر
أوانها والأسى المكبوت فى فمها بنات وعد بها عشاقها غدروا
عجماء تنبس كالتمتام عاتبة وملء أوفاضها التهويم والخدر([10])

وفى حقل القمح فى اسكتلندا بفيض الوادى بصوت الحاصدة الوحيدة وهى تغنى نشيدا عذبا يفوق فى حلاوته صوت العندليب ، ويأسر لب الشاعر ويردزويرث فيأمر المستمع للقصيدة بأن يلوذ بالصمت فلا يفسد عليه متعته بالاستماع فيقول :

And sings a melancholy strain
O listen ! for the Vale profound
Is overflowing with the sound .

وتمضى تغنى بصوت حزين تنصت ! صداها بواد عميق
يفيض امتلاء بصوت الفتاة (تغنى بعيدا بأحلى نغم) ([11])

فما أشبة صيغة الأمر التي أمرها الشاعر إسماعيل للمستمع بأن يخشع إذا مر بالدوح النشوان ، ومثيلته صيغة الأمر التي أمرها الشاعر ويردزويرث للمستمع بالصمت فى الوادي الذي فاض بصوت الحاصدة الوحيدة الذى لايماثلة صوت آخر.

ولعل هذا الأمر جاء من إسماعيل تقليدا لرائد الحركة الرومانسية ويردزويرث في قصيدته هذه ، الأمر الذي أثار ثائرة الدكتور الناقد محمد مندور، فقال في هذا الشأن : " أرى الدوح نشوانا" ومع ذلك يدعونا الشاعر إلى أن نخشع إن مررنا بالدوح النشوان : ماهذا التنافر ؟ ولماذا ينفطر قلب النسيم ولها بالأضواء ؟ أهذا تجسيم لإحساس

[10] - الدسوقى ، المرجع السابق ، ص ص ٢٦ و ٢٧ .
[11] - منصور ، المرجع السابق ، ص ٢٢٨ .

الشاعر ؟ أهو تصوير لدقة النسيم تصويرًا مجتليا ؟ ولماذا يجثو السنا وهو يحنو على الشاعر ؟ وينساب إليه من السماء ؟ ... وكل هذا تخبط فى الرؤية الشعرية. ([12])

* ولعل الصور التي رسمها محمود حسن إسماعيل في المثال السابق عن المبهورة المذاهلة التي تنتظر حبيبا غاب عنها ، أو التى هاجت في قلبها الذكر ، أو التي تعانى الأسى والكبت من عشاق غدروا بها ، تكون رجعا لصدى ويليام ويردزويرث فى قصيدته هذه التى يتساءل فيها عما ترددده أنشودة الحاصدة الحزينة فيما إذا كانت ترثى فقيداً كبيراً أو شيئا عزيزاً فقدته فى معركة قديمة أو تشكو من جرح أصاب فؤادها أو حزن أتت به الكوارث الطبيعية . فصور الأحزان تكاد تكون متشابهة ، كما أن أسلوب التساؤل عند الشاعرين واضح .

* تردد فى قصيدة " حصاد القمر " موضوع القافلة التي تجوب الصحراء والركب والسفر حين قال الشاعر إسماعيل عن الدوح النشوان :

كان أغصانه أشباع قافلة غاب الرفيقان عنها الركب والسفر ([13])

وجاء بالمقطع الثالث من قصيدة " الحاصدة الوحيدة " ذكر للقافلة المنهكة المسافرة فى صحراء العرب حين قال ويردزويرث عن العندليب الذي يرحب بتغريده ليسعد المسافرين الذين لجئوا إلى الظل فى الصحراء العربية .

No nightingale did ever chaunt
More welcome notes to weary bands
Of travellers in some shady haunt,
Among Arabian sands,

فلا العندليب بصوت جميل تغنى بأفضل من صوتها

[12] - الدسوقى ، المرجع السابق ،ص ٣٥ .
[13] - المرجع السابق ، ص ٢٧ .

وليس بأمضى قبولا لدى مسامع قافلة منهكة
مسافرة فى صحارى العرب أناخت بظل ظليل ببيت ([14])

فصورة القافلة والركب والسفر صورة متكررة فى كلتا القصيدتين وإن تباينت أساليب المعالجة فى كل منهما .

* والشعراء الرومانسيون عندما يهربون إلى الطبيعة يصورونها ، ويلوذون بحماها من الهجير النفسى الذى يؤرق أحلامهم ، يكتفون بالتوجع والأنين واستعذاب الألم وبث الشكوى وتفضيل العناصر الطبيعية والعضوية المتأصلة في النفس البشرية مع القدرة على إصلاحها .

نفَس الشاعر إسماعيل فى قصيدته " حصاد القمر " عن أحلامه المرهفة المعذبة من الليالي السود والشر الذي اغتال نفسه واشتكى إلى القمر من عذابه الذى يعانيه من أبناء الدنيا ، فيقول للقمر :

ذرَّت عيونك دمعا ليس يعرفه إلاغريب بصدرى حائر ضجر
قلب كقلبك مجروح وفى دمه هالات نور إليها ينصت البشر
سوى كلانا ونبع النور فى يده أنت السنا وأنا الإنشاد والوتر
وأشربتنا الليالي السود أدمعنا وأنت سال ونفسي غالها الشرر([15])

أما ويردزويرث فقد تنقل في قصيدته " الحاصدة الوحيدة " The Solitary Reaper بين الهضاب والتلال والوديان والحقول يستمتع باهتمام بالغ بصوت الحاصدة الذي يذكره بصوت العندليب – وبالعنقاء The Phoenix أى The Arabian Bird– الذي يرحب بالقوافل والمسافرين فى الصحراء العربية . وهو يتأمل النغمة الحزينة فى نشيدها الذي ربما يحكى عن موت أحد كبار الرجال او بالكوارث الطبيعية أو بأحد الأحباب الذي خان حبيبته حتى قال:

[14] - منصور ، المرجع السبق ، ص ٢٢٨ .
[15] - الدسوقى ، المرجع السابق ، ص ٣١ .

Whate'er the theme, the Maiden sang
As if her song could have no ending
I saw her singing at her work
And o`er the sickle bending

ومهما آتت من صنوف الغناء فقد شنفتنا بتغريدها
ويبدو الغناء كما لو يكون استدام وليست له من نهاية
رأيت بعينى الفتاة تغنى (وتتغنى بانتظام العمل)
تميل على المنجل الحاصد وتأخذ فى ضم أعوادها ([16])

وهكذا تكون مظاهر الحركة الرومانسية قد اتضحت في مقارنة القصيدتين " حصاد القمر " للشاعر محمود حسن إسماعيل الذي توحد مع السنابل والقمر والحقل والنخيل ومع الفلاح حتى عبر عنه وعن معاناته أصدق تعبير ، كما توحد الشاعر ويردزويرث فى قصيدته " الحاصدة الوحيدة " مع الحاصدة ومع الصوت الرائع الذي ملأ الوادي ومع بقية عناصر الطبيعة الفيزيائية وعناصر الطبيعة البشرية .

وتفوقت فى القصيدتين فضائل الطبيعة والعضوية على البنيوية الاصطناعية الاجتماعية ، فلم تظهر من الأدوات الصناعية إلا المناجل ، ولم يظهر من المجتمعات إلا القوافل .

والميل إلى الحزن على شئ يغار عليه الشاعر أمر واضح في كلتا القصيدتين فالشاعر العربي حزين نظرًا لقسوة الحياة على الفلاح المصري ولما يخفى الليل من شحناء وضراء ، والشاعر الإنجليزي حزين نظراً لأن الحاصدة تغنى نشيدها وهى حزينة ، فيحزن متأثراً بحزنها .

[16] ـ منصور ، المرجع السابق ، ص ٢٣٠ .